

شرح العقيدة الطحاوية

قال الشيخ العلامة قاضي القضاة علي بن أبي العز رحمته الله :

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده رسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فإن علم أصول الدين أشرف العلوم، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة؛ لأنه لا حياة للقلوب إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومن المحال أن تستقلَّ العقول بمعرفة ذلك، وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم بعث الرسل به معرفين، وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين، وجعل مفتاح دعوتهم، وزبدة رسالتهم: معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذ على هذه المعرفة تُبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها.

ثم يتبع ذلك أصلاً عظيماً:

أحدهما: تعريف الطريق الموصل إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

والثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم.

فأعرفُ الناس بالله عز وجل: أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمي الله ما أنزل على رسوله روحًا؛ لتوقف

الحياة الحقيقية عليه، ونور الهداية عليه، فقال الله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥) [غافر].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤) [الشورى].

[الشورى].

ولا ريب أنه على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيماناً عاماً مجملًا، وأما ما يجب على أعيان المؤمنين: فهذا يتنوع بتنوع حاجاتهم ومعرفتهم، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم، أو عن فهم دقيقه، ما يجب على القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها، ويجب على المفتي المحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

وينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق، إنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ﷺ وترك النظر والاستدلال الموصل إلى

معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله: ضلوا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧) [طه].

[طه].

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصف به العباد، إلا ما وصفه به المرسلون، بقوله

سبحانه: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ [الصافات].

فنزّه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون، ثم سلم على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد.

ومضى على ما كان عليه الرسول ﷺ خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصي به الأول الآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، على منهاجه سالكون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) [يوسف].

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصول دينها، كما أخبر الصادق ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم).

ومن قام بهذا الحق من علماء المسلمين: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وصاحبيه - أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحميري الأنصاري، ومحمد بن الحسن الشيباني رحمه الله ما كانوا يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به لرب العالمين.

وكلما بعد العهد ظهرت البدع، وكثر التحريف، الذي سماه أهله تأويلاً ليقبل وقل من يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل؛ إذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة «تأويلاً»، وإن لم يكن ثم قرينة توجب ذلك، ومن هنا حصل الفساد، فإذا سموه تأويلاً قبل وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بينهما.

وكل من التحريف والانحراف على مراتب، فقد يكون كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأً.

فالواجب: اتباع المرسلين، واتباع ما أنزل الله عليهم، وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ، فجعله آخر الأنبياء، وجعل كتابه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء، وجعل طاعته طاعة له، ومعصيته معصية له، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم.

وإنما وقع التقصير من كثير من المسلمين، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية، ولا في كثير من الأحوال العبادية، ولا في كثير من الإمارة السياسية، أو نسبوا إلى شريعة الرسول، بظنهم وتقليديهم، ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها.

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم، ولبس عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم - كثر النفاق، ودرس كثير من علم الرسالة.

وإن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعض ذلك، أو العمل به، فحسبه أن يسقط عن اللوم لعجزه، وعليه أن يفرح بقيام غيره به ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائماً به، وأن لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه، بل يؤمن بالكتاب كله، وأن يصاب عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من رواية أو رأي، أو يتبع ما ليس من عند الله، اعتقاداً أو

عملاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٢)

[البقرة].

وقد أحببت أن أشرح عقيدة الإمام الطحاوي، سالگاً طريق السلف في عباراتهم، والنسج على منوالهم، متطفلاً عليهم، لعل أن أنظم في سلوكهم، وأدخل في عدادهم، وأحشر في زمرتهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦١) [النساء].

وقد ابتدأ الشيخ الطحاوي كلامه فقال رحمته الله :

توحيد الله تعالى

(نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله وحده لا شريك له).

فأقول: اعلم أن التوحيد أو دعوة الرسل، أول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف].

وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾ [الأعراف].

[الأعراف].

وهو قول صالح عليه السلام وقول شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

وقال صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد أول ما يدخل به المرء إن أراد الإسلام، وهو آخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة» فهو أول واجب وآخر واجب.

أنواع التوحيد

ونعني به توحيد الإلهية، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع:

أحدها: الكلام في الصفات.

والثاني: توحيد الربوبية، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء.

والثالث: توحيد الإلهية: وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له.

أما الأول: فإن نفاة الصفات أدخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد، كالجهنم ابن صفوان ومن وافقه، وهذا النفي معلوم الفساد، فإن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله، وهذا غاية التعطيل.

وأما الثاني: فهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، ولم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم].

وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع: فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام].

[الإسراء].

وقال تعالى، عنه وعن قومه: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [الأنعام].

[النمل].

دليل التمانع

فليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، ويستدل على ذلك بدليل «التمانع» وهو: أنه لو كان للعالم صانعان، فعند اختلافهما، مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته، فإما أن يصلح مرادهما أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع؛ لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضًا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهًا، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر: كان هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزًا لا يصلح للإلهية وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٢٢) [الأنبياء].

توحيد الإلهية وبيان اعتقاد المشركين من العرب

وسبب ذلك اعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل - عليهم السلام - وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يُقرّون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السموات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٥٥) [لقمان].

وقوله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) [المؤمنون].

ومثل هذا كثير في القرآن، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك

وغيرهم، يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، كما قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٢) [نوح].

وقد ثبت في صحيح البخاري، وكتب التفسير، أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا: عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم.

منهج القرآن في تقرير وبيان توحيد الإلهية

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأن العالم ليس له صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٣) [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١٨) [يونس].

وبهذا نعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية، الذي يتضمن توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لَهَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) [الروم].

وقال تعالى: ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) [الزمر].

والقرآن مملوء بتقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبد إلا الله، فيُجعل الأول دليلاً على الثاني؛ إذ كانوا يسلمون في الأول، وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه: أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟ كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ٥٩﴾ **أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَايِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٦٠﴾ [النمل].**

ففي هذه الآيات يقول الله تعالى في آخر كل آية: (إِلَهَ مع الله)، أي: إله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام، هل مع الله إله؟ كما ظنه بعضهم؛ لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ١٩﴾ [الأنعام].

وإذا كان توحيد الربوبية داخلاً في التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فليعلم أن دلائله متعددة، كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول، فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج: كانت أدلته أظهر، رحمة من الله بخلقه.

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وأما ما كان من المقدمات المتفق عليها، المعلومة بالضرورة، فيستدل بها، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها.

ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عن الناس كلهم، باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال - وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقاً خلق بعض العالم، وكما تقول القدرية في نسبة الشرك إلى غير الله تعالى، وكما يقول الفلاسفة في حركة الأفلاك - فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته من نفع أو ضرر، بدون أن يخلق الله ذلك.

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس: بين القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (١١) [المؤمنون].

فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضرر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه؛ لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك، وتفرد بالملك والإلهية دونه: فعل، وإن لم يقدر على ذلك، انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه.

فلا بد من أحد ثلاثة أمور: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل الأدلة على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه، كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان: كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء].

وقد ظن البعض أن هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره، وغفلوا عن مضمون الآية، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقل: أرباب. وأيضاً، فإنه قال: لفسدتا، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجد. وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية، دون العكس، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً.

قال تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

نوعي التوحيد المنزل والمدعو إليه

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر عن نفسه، وكما أخبر رسوله ﷺ.

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد ومثل ما تضمنته سورة: ﴿قُلْ يَتَّيْبَهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝﴾ [الكافرون].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ ۖ﴾ [آل عمران].

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته، فذلك من مكملات التوحيد، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما فعل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

أجل شهادة وأعظمها

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّا آتَيْنَاهُ إِذْ نَسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامَ ۝١٩﴾ [آل عمران].

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد بأجل مشهود به.

عبارات السلف في (شهد) ومراتبها الأربعة

عبارات السلف في «شهد» تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة الشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط، تضمنت هذه المراتب الأربع، علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

والمهم من هذه الشهادات الأربع: مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٢٣) [الإسراء].

وقال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (٥١) [النحل].

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وأنبأ، وأعلم وحكم، وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذ وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات.

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة: لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلائلهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها، بل كتمها، ولم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.

طرق بيانه سبحانه شهادته ثلاثة

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

أما السمع: فسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها، الوجدانية وغيرها، غاية البيان، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨) [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (١٢) [المائدة].

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٤٤) [النحل].

وكذلك السنة، تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا تعالى إلى رأي فلان في أصول ديننا، ولهذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين بل قد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣) [المائدة].

وأما آياته العيانة الخلقية: فالنظر فيها، والاستدلال بها، يدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية، والعقل يجمع بين هذه وهذه، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعدر وإقامة الحجة - لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢٥) [الحديد].

وقال تعالى: ﴿وَلِإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥) [فاطر].

معنى اسميه تعالى (المؤمن والشهيد)

ومن أسماؤه تعالى: «المؤمن» وهو في أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين، بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بد أن يُرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه رسل الله حق، قال تعالى: ﴿سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ﴾ [فُصِّلَتْ].

وذلك أن القرآن هو المتقدم في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ﴾ [فُصِّلَتْ].

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۖ﴾ [فُصِّلَتْ].

فشهد سبحانه لرسوله بقوله إن ما جاء به حق، ووعد أن يُرى العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء شهيد، فإن من أسماؤه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء، ومشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته واستدلالة بالآيات الأفقية والنفسية - استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

شرح قول الإمام (ولا شيء مثله)

ثم قال الإمام الطحاوي: (ولا شيء مثله)

وذلك أن أهل السنة قد اتفقوا على أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولكن لفظ «التشبيه» قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد على المثلة المشبهة، و﴿وَهُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد على النفاة المعطلة.

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق، فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق، فهو نظير النصارى في كفرهم.

ومن خلال نفي التشبيه دخل التعطيل الذي لا يثبت لله أسماءه إذ يقولون: لا نقول له قدرة، ولا علم ولا حياة؛ لأن العبد موصوف بهذه الصفات، ولازم هذا القول أنه لا يقال له: قدير، عليم، حي؛ لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وغير ذلك، مع أنهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود، عليم، قدير، حي، والمخلوق يقال له: موجود حي عليم، ولا يقال: هذا تشبيه يجب نفيه.

وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل، فإن الله سمي نفسه بأسماء، وسمى بعض عباده بها، وكذلك سمي صفاته بأسماء، وسمى ببعضها صفات خلقه، فسمى نفسه: حيًّا، رءوفًا، رحيمًا، عليمًا، سميعًا، بصيرًا، عزيزًا، متكبرًا، جبارًا، فقال:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ (١٩) [الروم].

وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) [التوبة].

وقال: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨) [الذاريات].

وقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢) [الإنسان].

وقال: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ (٥١) [يوسف].

وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (٣٥) [غافر].

ومعلوم أنه لا يماثل الحيَّ الحَيَّ، ولا العليمُ العليمَ، ولا العزيزُ العزيزَ، وكذلك سائر الأسماء، ونظائر هذا كثيرة، وهذا لازم لجميع العقلاء.

فإن نفى أحد صفة من صفاته التي وصف بها سبحانه نفسه، كالرضا والغضب والحب والبغض، ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم، قيل له: فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر، مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيتَه وأثبتته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبتته؛ إذ لا فرق بينهما.

فإن قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات.

قيل له: فأنت تثبت له الأسماء الحسنى، مثل: حي، عليم، قدير، والعبد يسمى بهذه الأسماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يثبت للعبد، فقل في صفاته نظير قولك في مسمى أسائه.

وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابت في هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً، بل لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسماء إذا سُمي الله بها: كان مسماها مختصاً به، وإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصاً به، فوجود الله وحياته لا يشاركه فيه غيره بل وجود هذا الموجود المعين لا يشاركه فيه غيره، فكيف بوجود الخالق؟ ألا ترى أنك تقول: هذا هو ذاك، فالمشار إليه واحد، لكن بوجهين مختلفين.

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى، وزادوا فيه على الحق فضلوا، وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه، وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا، وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه، فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه، ولكن أساءوا في نفى المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر، والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه.

شرح قول الإمام (ولا شيء يعجزه)

قال الطحاوي: (ولا شيء يعجزه)،

وذلك لكمال قدرته.

قال تعالى: **أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿١٢﴾ [الطلاق].

وقال سبحانه: **﴿وَمَا كَانَتْ لَإِلَهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ**

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ [فاطر].

وقال عز وجل: **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ**

الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة].

وقوله: لا يئوده، أي: لا يثقله ولا يعجزه، فهذا النفي لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله: **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴿٤٩﴾ [الكهف] لكمال عدله.

وكقوله: **﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ** ﴿٣﴾ [سبأ] لكمال علمه.

وقوله: **﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴿٢٥٥﴾ [البقرة] لكمال حياته وقيوميته، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه.

شرح قول الإمام (ولا إله غيره)

قال: (ولا إله غيره)،

وهذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر، فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه

الاحتمال ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (١١٣) قال بعده: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٣) [البقرة:].

وذلك أنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني، هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: (لا إله إلا هو).

شرح قول الإمام (قديم بلا ابتداء، ودائم بلا انتهاء)

قال الطحاوي: (قديم بلا ابتداء، ودائم بلا انتهاء)

وذلك هو قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (٢) [الحديد].

وقال عليه السلام: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء).

فقول الشيخ: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء) هو معنى اسمه (الأول والآخر).

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته، قطعاً للتسلسل، فأنت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو، كالسحاب والمطر، وغير ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة، فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت، فعدمها ينفي وجودها، ووجودها ينفي امتناعها، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) [الطور].

يعني قوله سبحانه: أُلْهِدُوا من غير مُحدث، أم هم أحدثوا أنفسهم؟ ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً، وكل ما أمكن

وجوده بدلاً من عدمه، وعدمه بدلاً عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم.

وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية: وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأوضح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) [الفرقان].

ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية، فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى، وأيضاً: فالمقدمات وإن كانت خفية فقد يسلم بها بعض الناس، وينازع فيما هو أجل منها، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع، ووجوب وجوده أمر ضروري فطري، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبهة ما يخرجه إلى الطرق النظرية.

ضرورة التوقف في إطلاق الأسماء على ما ورد به الشرع

وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله تعالى «القديم» وليس هو من أسماء الله تعالى الحسنى، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن، هو المتقدم على غيره فيقال: هذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد ولم يستعمل هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما يسبقه عدم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٣٩) [يس].

والعرجون القديم: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، وهو العتيق الحامل للربط في النخلة، فإذا وجد الحديث قيل للأول: قديم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُونُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (١١) [الأحقاف]: أي: متقدم في الزمان.

وأما إدخال « القديم » في أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم: ابن حزم، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم، فإن ما يقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى، التي تدل على خصوص وما يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى، وجاء الشرع باسمه «الأول» وهو أحسن من «القديم»؛ لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى.

شرح قول الإمام: (لا يفنى ولا يبيد ؛ ولا يكون إلا ما يريد)

وتأوله: (لا يفنى ولا يبيد)

إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال عز من قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ

ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن). والفناء والبيد متقاربان في المعنى، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وهو أيضاً مقرر ومؤكد لقوله: دائم بلا انتهاء.

قال: (ولا يكون إلا ما يريد)

وهذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم، والكافر أراد الكفر وقولهم فاسد مردود، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهي مسألة القدر المشهورة، وسيأتي لها زيادة بيان - إن شاء الله تعالى - وُسِّموا «قدرية» لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر: قدرية أيضاً، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب.

وأما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يجبرها ولا يرضاهها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها، وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

إن المحققين من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [١٦٥] [الأنعام].

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ [٢٤] [هود].

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٢٥٣] [البقرة].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [١٨٥] [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [٢٧] [النساء].

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده الله، أي: ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والفرق ثابت بين إرادة المرید أن يفعل، وبين إرادته من غيره أن يفعل، فإذا أراد الفاعل فعلاً فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً، فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به، وقد لا

يريد ذلك، وإن كان مريدًا منه فعله، وهو سبحانه - إذا أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمان - كان قد بين لهم ما ينفعهم وما يصلحهم إذا فعلوه، ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم.

وكما أنه يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فالخالق أولى بإمكان ذلك في حقه مع حكمته، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور: كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره، فكان مرادًا بجهة الخلق ومرادًا بجهة الأمر، ومن لم يعنه على فعل المأمور: كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره، ولم يتعلق به خلقه، لعدم الحكمة المتقضية لتعلق الخلق به، ولحصول الحكمة المتقضية لخلق ضده، وخلق أحد الضدين ينافي خلق الضد الآخر، فإن خلق المرض - الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياها ويرق قلبه به ويذهب عنه الكبرياء - يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح، وتفصيل حكمة الله في خلقه وأمره تعجز عن معرفتها عقول البشر.

معنى قوله تعالى: (ولا يحيطون به علمًا)

قال الطحاوي: (لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام)

وهو معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه].

قال الجوهري في صحاح اللغة: توهمت الشيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته.

فمراد الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يحيط به علم.

قيل: الوهم ما يرجى كونه، أي: يُظن أنه على صيغة كذا، والفهم: هو ما يحصله العقل ويحيط به، والله تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه إلا هو سبحانه، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته، وهو أنه أحد، صمد، لم يلد ولم يولد.

المراد بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وهذا رد لقول المشبهة، الذي يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى: قال عز

وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة رحمته الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه، ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا.

وقال نعيم بن حماد المحدث الثقة: من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه.

والمشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة، وهذا معنى قوله تعالى في الآية المتقدمة، فقد نفى الله تعالى المثل وأثبت الوصف.

وسأتي في كلام الطحاوي إثبات الصفات، تنبيهاً على أن نفي التشبيه لا يستلزم نفي الصفات.

ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها، ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية: لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم الاضطراب.

ولكن يستعمل في ذلك قياس «الأولى»، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال

تعالى، والله المثل الأعلى، مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن، أو للمتحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجوه - وهو ما كان كمالاً للوجود غير مستلزم للعدم بوجه - فالواجب القديم أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر، فإنما استفاد من خالقه وربّه ومدبره، وهو أحق به منه، وإن كل نقص وعيب في نفسه - وهو ما تضمن سلب هذا الكمال، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات - فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى.

(الحي القيوم) من أعظم أسماء الله الحسنى

وأما قوله: (حي لا يموت، قيوم لا ينام)

فذلك هو قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ

﴿٢٥٥﴾ [البقرة].

فنفي السّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته.

وقال ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام».

فلما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه: أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه، فمن ذلك: أنه حي لا يموت؛ لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى، دون خلقه، فإنهم يموتون، ومنه: أنه قيوم لا ينام؛ إذ هو مختص بعدم السّنة والنوم، دون خلقه، فإنهم ينامون وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته، فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً وهواً ولعباً.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ ﴿٦٤﴾ [العنكبوت].

فالحياة الدنيا كالمنام، والحياة الآخرة كاليقظة، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة

كاملة، وهي للمخلوق؛ لأننا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة، فهي دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به.

واعلم أن هذين الاسمين (الحي القيوم)، مذكوران في القرآن، معاً في ثلاث سور، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى، حتى قيل: إنها الاسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمّن وأصدق، ويدل «القيوم» على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ «القديم»، ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود، واقرانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال، ويدل على بقائها ودوامها، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ.

فعلى هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليها ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها: استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، و«القيوم» متضمن كذلك غناه، وكمال قدرته، فإنه القيوم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه.

معنى قول الإمام (خالق بلا حاجة، رازق بلا منونة)

قال الطحاوي: (خالق بلا حاجة، رازق بلا منونة)

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا

أُرِيدُ أَنْ يُلْعَبُوا مِنِّي﴾ ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) [فاطر].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى من الحديث القدسي:

(يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم: ما نقص ذلك في ملكي شيئاً) رواه مسلم.

وقوله بلا مئونة: بل ثقل ولا كلفة.

معنى قول الإمام: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة)

ثم قال: (مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة)

وذلك أن الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢) [الملك].

والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً.

وفي الحديث أنه: (يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار). وهو وإن كان عرضاً، فالله تعالى يقلبه عيناً.

وورد في الأعمال أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراس، وورد في سورة البقرة وآل عمران: أنها يوم القيامة (يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان، أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف)، وفي الصحيح: أن أعمال العباد تصعد إلى السماء.

أزلية وأبدية الصفات العلى

قال: (مازل بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد - بكونهم - شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزل عليها أبدياً).

أي: أن الله - سبحانه وتعالى - لم يزل متصفاً بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها؛ لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدتها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده.

والصفات الاختيارية وصفات الفعل كلها أزلية أيضاً، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء والنزول، والغضب والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا.

قول الإمام مالك في الاستواء

كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله) لأن هذا الحدث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته للكتابة؟

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم: لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة وفيه إجمال، فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثه، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فهذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى - لا كأحد من الورى - ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته، فهذا نفي باطل.